إســلاميـة الشـعر الأردي

الدكتور عبد الكبير محسن

Abstract

This work gives details about the discriminatory sign of Urdu language as its erection and beginning was purely Islamic, as the Muslims introduced and developed it. It is not unjust to say that Urdu, Islam and Muslims are integral parts of each other. It logically resulted that the impression of Islamic culture is the deepest in this language. Further, there is a priceless cluster of Islamic awareness, knowledge and technique in it. The article also highlights the visible particularities of Urdu language and explains that from very beginning the Urdu language contains Islamic and religious shapes in general and especially it attracted the poets to say it in their poetry in every age.

اللغة العربية من أهم لغات شبه القارة الهندية حيث يوجد الناطقون بها فى كل بقعة من بقاعها وهي إسلامية منذ باكورتها ، تشكلت نتيجة الاختلاط بين الأسر والقبائل المسلمة الناطقة باللغات المختلفة التى جَمع بينها الغزو الهندي ولما اجتمعت هذه العناصر المختلفة فى المعسكر أخذتهم ضرورة التفاهم فيما بينهم إلى استعمال لغة مشتركة يمكن تفاهم الجميع بها فأخذت تلك اللغة المشتركة مفرداتها من لغات القوم المتعددة فهذا الشكل الجديد اللغوى عرف فيما بعد بالأردية أخذاً من [أردو [أى : العسكر بالتركية ، بمرور الأيام اتسع مجال هذه اللغة الجديدة وامتدت دائرتها بتوطُّد دعائم تسلُّط هذه العناصر الجديدة فى بلاد شبه القارة وكان للصوفية والدعاة إلى الإسلام دورٌ فعال فى توسيع نطاق هذه اللغة حيث أنتجوا بها أعمالهم الأدبية شعراً ونثراً التى كانت تقتبس مضامينها من مصادر الثقافة الإسلامية، نبغ فى باكورتها عديد من الشعراء الصوفية الذين اتخذوا شعرهم الأردى وسيلةً لنشر دعوة الإسلام وبث التعليمات الدينية أمثال القاضى محمود دريائى فى القرن الثامن الهجرى، خلَّف ديوانا فى صورة مخطوط فى الموضوعات الصوفية([1]) وبزرگ شاه فى كجرات (المتوفى ٩٧٣هـ) الذى نال درجة فائقة فى الشعر الصوفى وقد خاطب فى شعره المرأة ويتحدث على لسانها عن موضوعات التوحيد والمعرفة الإلٰهية ونظرية وحدة الوجود وغيرها من الأفكار التصوفية ومن معاصريه أمير الدين المعروف بميراں جى الملقب بشمس العارفين المولود بمكة ونزيل دولة كجرات المسلمة فى عهد عادل شاه الأول (٩٧٠هـ) وقد تحدث شعرا ونثرا عن نفس الموضوعات المذكورة على لسان فتاة اسمها خوش أو خوشنودى([2]) وفى نفس العصر لمع اسم الأمير خسرو الدهلوى وانتهت إليه الرياسة فى الاتجاه الشعرى الصوفى، نسب إليه الكثير من المقطوعات الشعرية فى موضوعات التوحيد ومعرفة الذات والعشق الحقيقى وقد اعترف

بطول باعه فی الشعر الصوفی باللغة الأردية، وهو الذی زودها بتراث ضخم لايزال فی متناول الباحثين.

فی عهد الاستعمار الإنجليزي:

لما أظل الاستعمار الإنجليزی علی بلاد شبه القارة وجاء بثقافة معادية لثقافة الإسلام ومبادئ وسعی لنشرها بإنشاء المدارس والمعاهد وقصر المناصب الحكومية والوظائف الرسمية علی خريجيها ازدهر الشعر الأردی الذی قاوم به أصحابه الثقافة الأجنبية وما جرَّت من أضرار وآثار تهدف إلی هدم الكيان الإسلامی فی الهند ، استمد هذا اللون الشعری موضوعاته من التراث الدينی وعارض الانحراف الطارئ علی المجتمع الإسلامی فی أخلاقه وسلوكه ودينه وسعی لإصلاح ما فسد، ومن أبرز أعلامه خواجه الطاف حسين حالی، انتقد بشعره ما لحق البيئة الإسلامية من فساد فی الدين والخلق وشَخص الأمراض الاجتماعية واصفا لها علاجا وهو العودة إلی الكتاب والسنة، أشهر قصائده بهذا الصدد مزدوجته المشهورة المعروفة بـــ : مسدس حالی([3]) وهو لم يزل يُعد نموذجا رائعا ورمزا جليلا لإسلامية الشعر الأردی، ومن شعراء هذا النمط فی نفس الفترة أكبر إلٰه آبادی (المتوفی: ١٩٢١م) استخدم أسلوبا ظريفا طانزا فی معارضة الأفكار الأجنبية، بدأ عصر العلامة الدكتور إقبال الفيلسوف منذ مطلع القرن العشرين، ملأت شهرته الآفاق، وكسر شعره المسلح بالثقافة الإسلامية أصنام الديموقراطية الأروبية وأصنام القومية والوطنية والمادية، وعُدَّ أكبر سدٍّ فی سبيل سيل الأفكار الأجنبية وأهلها الذين حسبوا الثقافة الإسلامية عقبة فی طريق الرقی والحضارة، وقد سلك إقبال طريق الاعتدال فی مسألة التقليد والتجديد فلم يخالف كل جديد ولا قبل كل قديم بل كانت دعوته نبذ ما يعوق التقدم الحضاری من التقاليد والرسوم الرائجة فی مختلف طبقات القوم والانتفاع بما يفيد الإنسانية من المكتشفات والدراسات الحديثة دون أن ينهدم به ركن من أركان الدين، كان شعره المشتمل علی أفكار مثل تكريم النفس ومعرفة الذات والإباء كنفخة إسرافيل الثانية، وكان باهر النجاح إذ ادعی قواد حركة تأسيس باكستان أن شعر إقبال والأفكار المبثوثة فيه هی التی أرشدتهم بل رسمت لهم خطة باكستان ودلّتهم علی الطريق إليها ولذا لُقب إقبال - مصور باكستان- ([4]).

تعدد الشعراء فی الفترة الاستعمارية الذين بدت فی شعرهم ملامح الثقافة الإسلامية وهم أرادوا به إصلاح المجتمع وتسديده، وأكدوا علی ضرورة التمسک بالتقاليد الدينية والتمتع باكتشافات جديدة بالحذر والاحتياط وبعضهم هدف إلی إبراز المشاكل التی لحقت البيئات الإسلامية مثل حالی السالف ذكره وهو فی مسدسه يشبه حالة مسلمی شبه القارة بحالة العرب الاجتماعية أيام جاهليتهم، ويتحدث عن البعثة النبوية التی تسببت إلی تغيرات جذرية فی مجتمع العرب، وبهذه الإشارات التاريخية يؤكد علی ضرورة العمل بالكتاب والسنة للتخلص من كوارث الوقت والنجاة من مصائب الدهر.

وهنالک من ذكّر المسلمين أمجادا حققوها آباؤهم سعياً لإيقاظهم من نومهم العميق لكى يسعوا لإعادتها ويجددوا ذكريات الأسلاف مثل أكبر إلٰه آبادى الذى له صوت رفيع فى انتقاد معايب الثقافة الإنجليزية، كان إقبال رحمه اللہ فى بادية حياته الشعرية داعيا إلى القومية والوطنية، كانت تعلو شعره السمة المحلية وسرعان ما انشرح صدره وتغير أسلوبه لما اهتدى إلى أضرار دعوته الأولى فتركها مخاطبا مسلمى العالم كله داعيا إياهم إلى توحيد صفوفهم ولمّ شعثهم وجمع كلمتهم من شاطئ النيل إلى حدود كاشغر وأخذ يَبُثُّ فى شعره مفاهيم وأفكار القرآن والسنة.

من مخضرمى الهندين: الإنجليزى والباكستانى ظفر على خان، وكان من أجلة الصحفيين وزعماء السياسة وفحول الأدباء، اتخذ شعره سبيلا للرد على مطاعن أعداء الإسلام ، جُل موضوعات شعره دينية كما أنه يلخصها فى شعره التالى حيث يقول: (خدائى حمد، پيغمبر كى نعت، اسلام كى عظمت ميرے مضمون ہيں، جب سے شعر كہنے كا شعور آيا) أى: حمد اللہ عز وجل ومدح الرسول ﷺ وبيان عظمة الإسلام موضوعاتى منذ أن ألهمتْ الملكة الشعرية، تظهر شخصيته فى ثنايا شعره شخصية مجاهد وبطل من أبطال الإسلام، عزم على أن يضحى فى سبيله بكل ما يملكه من غَث و سمين، نجد لديه الإشادة بالأمجاد القديمة وإنذارا للمسلمين من الوقوع فى مهالک الوقت، ومن هنا قال أحد النقدة إن ظفر أوقظ المسلمين بإعجاز شعره([5]) كان من الذين شهروا سيوفهم الشعرية ضد الحركة القاديانية والحركات الهندوسية التى كانت تهدف إلى تضليل المسلمين أو إرجاعهم إلى الديانة الهندوسية وكانت لشعره قوة قلما وجدت عند غيره ويعلوه طابع الرجز والهجو، تقوى بوجوده مسلمو الهند وحسبوه أكبر زائد عن حوضهم، وقد سَلَّ سيفه الشعرى كلما ناداه الوقت وبارزه الدهر.

الصراع بين الإسلام والشيوعية:

انتشرت آثار الشيوعية بعد أن توطدت دعائمها فى الاتحاد السوفيتى فى عديد من الدول وتأثر بها كثير من شعراء الأردية من أهل شبة قارة باكستان والهند وانضموا إلى حزب تشكل سنة ١٩٣٥م باسم (جمعية محبى الرقى من المؤلفين) والذى تولى نشر أفكار الشيوعية وهدف إلى تكوين الحكومية الشيوعية فى البلاد ولما كانت هذه الأفكار غامضة فى البداية وقد ألبست ثوبا جميلا أخذ بها بعض شعراء الفكر الدينى أيضا مثل إقبال وظفر فى عديد من القصائد والأبيات، وسرعان ما انكشفت لهما سحب الشيوعية، وتبدت بواطنها فردا علىها بقوة، كثر عدد الشعراء الذين انسلكوا بجمعية محبى الرقى وطالت بياناتهم الشعرية فى الموضوعات الدموية وأخذ الثأر من الأغنياء وفى موضوع الانقلاب، وبدأوا يشنون الغارات على المبادئ الدينية والتقاليد المذهبية، ويعتبرونها علامة التخلف، يبرؤون منها ويخالفون المذهب وأهله وينكرون صلته بالحياة العامة ويفصلون بينه وبين السياسة وعلى أيديهم ظهرت موجات المجون والإلحاد والزندقة، كان إمامهم

فی کل ھذا جوش ملیح آبادی ومن أبرز أعلامھم سردار جعفری، و ن. م. راشد ومیراں جی ومجاز وساحر وفیض حتی نفی بعض غلاتھم ذات الإلٰہ عز وجل والرسالة وکثیرا من الأفکار الدینیة التی لا توافق ھواھم وھوی الشیوعیة ودعوا إلی الإباحیة المطلقة کما أن بعضھم نظم قصائد فی التمسخر ببعض الشعائر الدینیة مثل الحجاب([6]) وجعل میراں جی التلذذ الجنسی وذکر أحواله موضوع غالب شعرہ، تناثرت فی شعرھم موضوعات الوطنیة والشعوبیة والتحرر من قیود الدین وبث المطاعن علی الإسلام ومخالفة ثقافته وبیئته.

کثُرَت عددھم تلک المنح والمساعدات التی خصصت حکومة السوفیت الشیوعیة لمن یتولی نشر أفکارھا فی مختلف نواحی العالم فأقبل عدد ھائل من الأدباء من کل لغة وجنس علی الانخراط بسلسلة الجمعیات الشیوعیة رغبةً فی ھذہ المنح، خالف شعراء ھذا اللون حرکة تأسیس باکستان لکونھا تھدف إلی حصول بقعة تطبق فیھا شریعة الإسلام ـ وإن کان ھذا الھدف لم یتحقق بعد ـ انخفضت أصواتھم وانکسرت شوکتھم بعد تأسیس ھذہ الدولة، وساعد علی ذلک وجود شعر مقاوم لھم وأفکارھم الخبیثة، نتج من أولی الفکر الإسلامی وحاملی لواء الفکر الدینی من الشعراء الذین بذلوا جھودھم الشعریة للرد علی ھذہ الموجات المضادۃ للثقافة الإسلامیة، وھدفوا إلی ترویج التعلیمات الإسلامیة واتخذوا ملکاتھم الأدبیة وسیلة فی نشر أفکار الدین وثقافته، ولم تطمح نفوسھم إلی المساعدات المالیة من تلقاء الحرکة الشیوعیة العالمیة التی فتنت کثیرا من الناس، وھذا الجمع من الشعراء لم یَھم فی کل واد بل اتخذوا لأنفسھم أسوۃ فی إقبال شاعر الإسلام وحکیم الأمة، وقد تعرض أکثرھم لإھمال النقدۃ إذ کان جلھم منتمین إلی جمعیة الشیوعیین فلم یضعوا لشعرھم تقدیرا حسدا من عند أنفسھم.

من أبرز أعلام ھذا اللون حفیظ جالندھری صاحب النشید الوطنی الرسمی وإحسان دانش وملک عزیز ونعیم صدیقی وماھر القادری وعاصی کرنالی وغیرھم الکثیرین، وقد خاض ھؤلاء معرکة شعریة ضد ثلاث طوائف:

١ـ طائفة انغرقت فی حب الثقافة المغربیة وحسبت کل نجاح فی التزود بھا وکانت السیادۃ لھا فی ساحة السیاسة الباکستانیة.

٢ـ طائفة الجھلة من الصوفیة الذین جعلوا الإسلام عبارۃ عن أداء الفرائض الدینیة من صوم وصلاۃ وحج فحسب، وحسبوا السیاسة شجرۃ ممنوعة لأھل الصلاح واعتبروھا طریق الضلال والغی وھم بفکرھم ھذا فصلوا عملیا بین الدین والسیاسة.

٣ـ طائفة شعراء الفکر الشیوعی الذین ولوا وجوھم نحو الموسکو والبیکنک وتعبدوا لأرباب الفکرۃ الشیوعیة : لینن وماؤزے تنک وکارل مارکس وإن کانت قوتھم منکسرۃ ولکن لم یفقدوا نفوذا فی الإعلام الباکستانی فاستوظفوہ لِبَثِّ أفکارھم.

كان شعراء هذا الاتجاه تراجمةً للإسلام ونشر ثقافته واهتموا بالقضايا العالمية والمحلية المتعلقة بالبيئات الإسلامية، ويجدر فى هذا المقام الإشادة بجهود البعض منهم الذين نالوا ثقة لدى الأوساط الدينية، فمثلا منهم إحسان دانش: نال رتبة عالية فى ساحة باكستان الأدبية، انضم فى بداية حياته الشعرية إلى جمعية محبى الرقى الشيوعية فأكثر من الحديث عن مشكلات الفلاحين والعاملين كما دأب عليه شعراء الشيوعية إلا أنه لم يخض مثلهم واديا مخالفا لنصوص الكتاب والسنة، ولم يَدَّع أن فى الشيوعية علاجا لكل داء وسداً لكل حاجة، أما شعره بعد تأسيس باكستان فهو تعبير صريح عن حبة للإسلام ومعارفة والانقياد لكل ما جاء به رسول الإسلام ﷺ ونشرٌ لأقداره ودعوةٌ إلى اتخاذه نظاما للحياة الفردية والاجتماعية، ومنهم حفيظ جالندهرى: له مكانة خالدة فى تاريخ الأدب الباكستانى تقوى بوجوده شعراء الفكر الدينى ومحبو الثقافة الإسلامية، وكان جهير الصوت، عالى الكعب وطويل الباع فى الشعر الأردى، أكبر جهوده فى مجال خدمة الدين ديوانه المعروف بـ "شاهنامه إسلام على غرار شاهنامة فردوسى" وهو أحد كبار شعراء إيران، نظم فيه تاريخ ملوك الفرس القدامى وأمجادهم، كانت بداية حفيظ الشعرية نظم القصائد الوطنية ثم غير أسلوبه ونصب أمام عينية هدفا واحدا وهو نظم أمجاد الإسلام والمسلمين وتاريخهم وقد أشار إليه بقوله :

تمنا ہے میری کہ اس دنیا میں کوئی کام کر جاؤں

اگر ہو سکے تو خدمتِ اسلام کر جاؤں

(أى أمنيتى أن أصنع شيئا فى هذه الدنيا، أريد خدمة الإسلام لو وُفِّقتُ لذا) سلك بعد ذلك على طريقة ألطاف حسين حالى وإقبال، وعزم على نظم تاريخ الإسلام وقرض بذاك الصدد أطول مزدوجة فى تاريخ الشعر الأردى فى موضوعات السيرة النبوية والمغازى، واستهلها ببيان قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، إذ يقصد أرضا غير ذى زرع بأمر من الله تعالى، ويعتبره الشاعر بداية ظهور الإسلام، تلقت الأوساط الدينية هذه المزدوجة بقبول حسن ودأب الخطباء على التمثل بأبياتها فى خطب الجمع والاجتماعات الدينية، وحاز حفيظ لدىهم رتبة عليا بسببها.

ومن شعراء هذا اللون فى باكستان نعيم صديقى وماهر القادرى وقد خصصا قوتهما الشعرية لتأييد الأفكار والمنشورات الدينية والإشادة بتضحية محبى الشريعة والعاملين لتطبيقها فى كل دولة من دول المسلمين، ونجد فى شعرهما بيانات للمحن والمشكلات التى فُتن بها زعماء الحركات الإسلامية فى باكستان وخارجها مثل نكبة إخوان المسلمين فى مصر واستشهاد زعيمهم الشيخ حسن البناءؒ وصلب السيد قطبؒ وآخرين من قادة الإخوان، ومحنة المسلمين فى سورية وباكستان الشرقية (حاليا بنغله ديش) وعن قضية فلسطين وكشمير المحتلة وأفغانستان وغيرها من القضايا التى تعم المسلمين.

قصرنا الحديث على هؤلاء الشعراء نظرا إلى مكانتهم الأدبية التى حازوها وامتازوا بها بين قرناءهم وإلا فهناك ثلة من الشعراء المنتمين إلى جميع المسالك الفقهية المتواجدة فى باكستان ولهم فضل كبير فى نشر التراث الإسلامى، إذ جُل نظمهم فى الموضوعات الدينية وهم حقيقةً شُراح الكتاب والسنة وحَقَّ لهم تقدير الشعب الباكستانى إذ تُصغى أذانهم لقصائدهم فى الجلسات الدينية وحلقات الذكر المعقودة بكثرة فى كل أرجاء باكستان، ومن المؤسف أن نقدة الأدب غضوا أبصارهم عن أولئك اعتبارا إياهم شعراء مذهبيين لأنهم لم ينظموا إلا الموضوعات الدينية، وهذا الأمر فى رأيهم قد نقص من درجتهم الأدبية والحق أن أكثر النقدة محبو العلمانية ولذا حرموهم من التفاتهم، إنهم إن حرموهم من حظ أنفسهم ولكن الشعب الباكستانى لم يحرمهم من عنايته، فالإسلام شاكرٌ لهم على ما بذلوا جهودا جبارة فى نشر الثقافة الإسلامية التى لها أثر فعال فى توجيه عوام الناس وتزويدهم بالمعلومات الدينية.

[1]) دائرة المعارف الإسلامية (بالأردية) 339/2، الطبعة الأولى 1962م، مطبعة جامعة بنجاب.

[2]) أيضا 40/2

[3]) مسدس: صنف شعرى تنقسم فيه القصيدة إلى مقاطع، وكل مقطع يتكون من ستة أبيات، ولا يشترط فيه التزام القافية الواحدة، لقى مسدس حالى رواجا عظيما لما ينم عن إخلاص صاحبه فى إزالة المكروهات والبدعات الرائجة فى البيئة الإسلامية للهند وقد ترجم إلى عدة لغات شبه القارة.

[4]) تواجد صراع عنيف فى شبه القارة بين المسلمين أيام الاستعمار بالنسبة للمنافسة بين التقليد والتجديد، أدى إلى انقسام المسلمين ثلاث طوائف، راجع لتفصيل ذلك مقال الكاتب المنشور فى مجلة سياحة الأمة الصادرة من إسلام آباد فى عدد شهر محرم ـ صفر 1419هـ.

[5]) عبد القادر سرورى، جديد أردو شاعرى ص: 345(الشعر الأردى الحديث)

[6]) فى هذا قصيدة ل : فيض و : جانثار اختر من شعراء الإلحاد والزندقة